النظرة إلى المرأة الأندلسية في عهد ملوك الطوائف والمرابطين
" دراسة في المعطى الحضاري والثقافي"

ط.د/ بلعيدي رامي/ المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة.
belaidirami@gmail.com

الملخص:

يسلط هذا المقال الضوء على مختلف نظرات المجتمع الأندلسي لفعاليات المرأة الحضارية في عصر ملوك الطوائف والمرابطين، فلم تكن المرأة بمنأى عن ساحة النشاط العلمي عصرئذ، خاصة أن الإسلام دعا الى العلم والمعرفة والتعلم، وحث المسلمين على طلبه دون استثناء بين المرأة والرجل،وقد قطعت المرأة شوطا كبيرا في فرض نفسها كشريك فاعل، في ظل هيمنة خطاب ذكوري متأصل وموروث يشيد بمكانة الرجل، متناولين معالم نظرات المجتمع للمرأة في المنطقة سلبا وإيجابا، معرجين في الأخير على إفرازات هذه النظرات على فعاليات المرأة عصرئذ.

الكلمات المفتاحية: المرأة، الحضارة، الخطاب الذكوري، الأدب، ملوك الطوائف والمرابطين.

Summary:

This article high lights the image of women Andalusia in cultural activities in the era of the kings of the sects, women were not excluded from the arena of scientific activity era of the kings of the communities, A masculine and deeply rooted discourse that praises the status of men ,especially the

assumption of your breath on exhaustion and break into and share and test, and finally reflect on the implications of this picture on the formation and crystallization of a balanced discourse on women of the time.

Keywords: women, cultural, masculine discourse, literature, The taifa states

and Almoravides.

مقدمة:

لقد مرت المرأة بأطوار عديدة منذ أقدم العصور، متأرجحة بين الدونية والكرامة، وفي الجملة كان وضعًا مثيرًا للشفقة لما حملته من امتهان وتقليل من شأنها، حتى جاء الإسلام بنوره، وبهدي نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، فمنحها الحقوق والواجبات، والمكانة العالية العظيمة، لأنها محور البيت، ومربية الأجيال، فهي الأسرة، والأسرة هي المجتمع، وبالتالي يتوقف على المرأة المجتمع كله، فإن صلحت صلح المجتمع.

ولاشك أن النظرة للمرأة وموقعها في مجتمع الغرب الاسلامي على عهد ملوك الطوائف والمرابطين تعد معيارا لمدى تطور المجتمع وتحضره، كما يمكن قياس مستوى ثقافة الرجل من خلال مواقفه من المرأة وإيمانه بما لها من حقوق وواجبات.

فقد قامت المرأة الأندلسية في مجتمع الغرب الاسلامي في عصر ملوك الطوائف بفعاليات متعددة رسمت دورها في الحياة الثقافية والعلمية والأدبية، والذي امتد على قرابة قرن كامل، بالزخم الذي عرفته هذه المرحلة التي شكلت محطة فاصلة بين عهدي القوة

والازدهار، و بين مرحلة الضعف و الانكسار، لتدلل على صورتها في هذا المجتمع مكانة المرأة في المجتمع الأندلسي بصفة عامة، ولا شك أن المرأة الأندلسية تمتعت بمكانة حضارية خاصة في ظل دول الطوائف الأندلس قلما نجدها في عصر آخر سابق أو لاحق، فإلى أي مدى تنوعت وتطورت النظرة للمرأة الناشطة في المجال الحضاري والثقافي في عصر ملوك الطوائف والمرابطين بالأندلس؟ وهل كانت هذه النظرات على نفس الدرجة من الوضوح والوتيرة والتجلي؟.

1- المتعلمة والمعلمة:

لم تكن المرأة الأندلسية بمنأى عن ساحة النشاط العلمي عصر ملوك الطوائف، خاصة أن الإسلام دعا الى العلم والمعرفة والتعلم، إذ أمر المسلمين على طلبه دون استثناء بين المرأة والرجل، ولقد بلغت المرأة نصيبا وافرا من العلم والمعرفة؛ مساهمة في بناء صرح الأدب والعلوم وتنسيقه، مما جعل الأستاذ غوستاف لوبون يثني على النسوة الأندلسيات الذين اشتهرن بالمعرفة العلمية والأدبية[1].

هذا وقد تنوعت صور المرأة المتعلمة بين الطبقة الخاصة الارستقراطية والعامة، حيث كان جل نساء بلاط ملوك الطوائف والمرابطين متعلمات، وهو ما ولد نظرة ايجابية للمرأة المتعلمة، مما جعل هذا العصر يصدح بالمتعلمات الذين كان لهم شأن فيما بعد سواء شاعرات أو أديبات او عالمات.

فهذا الأمير المعتصم بالله بن صمادح[2]، اعتنى بابنته المعروفة بأم الكرم وقام بتأديبها؛ لما توسم فيها من ذكاء وفطنة[3]، منطلقا من رغبة شديدة للمرأة في الإقبال على التعليم وطلب العلم، إذ كانت للمرأة رحلات علمية تلقت من خلالها مختلف العلوم على يد

كبار العلماء والشيوخ أمثال ابنة فايز القرطبي التي رحلت الى دانية وبلنسية لحضور مجالس العلم، مما جعل لها نظرة خاصة في المجتمع تنم عن الاحترام والتقدير[4]، فالوسط الارستقراطي في عصر الطوائف كان أكثر انفتاحا في مجال الرحلة لطلب العلم لدى المرأة، حيث كان النساء يتعلمن ويتفقهن في الدين ويدرسن الأدب، وكان كثير منهن من علية الأمراء وعلية القوم يحرصون على تعيين مؤدبات عالمات لبناتهم، مشيرا في الوقت ذاته على نظرة مجتمع الخاصة الى صورة المرأة المتعلمة المتميزة والمكانة التي يمكن أن تتبوأها بفضل تعلمها.

وترتبط المرأة المتعلمة بخصوصية فهم المجتمع للمرأة الحرمة خاصة لدى الطبقة العامة، فقد كانت الفتاة في العهد المرابطي تتلقى تعليمها على يد ولي أمرها أو على يد أحد الرجال من ذوي محارمها، فهذه أم هانئ بنت القاضي محمد بن عبد الحق بن عطية أخذت العلم عن والدها، كما أن حمدونة وزينب ابنتا زياد بن بقي العوفي تلقتا تعليمهما على يد والدهما الذي كان مؤدبا[5]، لتتصدى للتدريس وتبرز بالموازاة مع ذلك صورة مشرقة لصورة المرأة المتعلمة بعد أن ذاع صيتها وعظمت منزلتها[6].

كما اشتهرت الأديبة أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي التي درسها أبوها فنشأت نبيلة "في حجر أبيها لا يدخر عنها تدريجا ولا سهما ، حتى نهض إدراكها"[7]، إضافة إلى مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري التي سكنت إشبيلية في عصر الطوائف وكانت أديبة وشاعرة مشهورة تعلم النساء الأدب[8]، كما يذكر لزوم تأديب ولادة بنت المستكفي مهجة بنت التياني القرطبية الى أن صارت شاعرة[9].

ويدخل في هذا الإطار إماء وجواري الأمراء، إذ لم تكن المرأة الحرة وحدها في رياض المعرفة والتعلم، وإنما ظهر كثير من الجواري اللاتي ازدادت العناية بهن، فكن يدرسن

مختلف أنواع المعارف، حيث كانت الجواري اللائي يشترين يخضعن للتعليم لتزيد أثمانهن عند بيعهن، و في نفس السياق أشار ابن بسام قائلا:" ...كان يشتري القيان والجواري الحسان، ثم يقوم بتعلمهن وتدريسهن مختلف أنواع العلوم... وهن الآن عالمات حكيمات منطقيات، فلسفيات، هندسيات"[10]، ومن النساء في عصر الطوائف المعلمة المعروفة إشراق السوداء العروضية مولاة عبد الرحمان بن غلبون من بلنسية، وكانت قد أخذت علومها من مولاها، ولمنها فاقته في ذلك[11]، ولاشك أن الرجال الذين اهتموا بتعليم جواريهم، كانوا من أهل العلم أو الأدب أو أنهم أحبوا العلوم والأدب، بالإضافة إلى الربح المتوخى من هذه التجارة.

ويبدوا أن تمثل المجتمع للمرأة المتعلمة لاقت قبولا حسنا من لدن المجتمع الاشبيلي، فقد عدت حياة مريم ابنة أبي يعقوب الأنصاري التي سكنت اشبيلية؛ واحدة من أستاذات عصرها في الأدب والشعر والدين، إذ كانت تغدوا على بيوت اشبيلية ، فتعلم نسائها الآداب من شعر ونثر وحكمة، فكان لها بينهن منزلة محمودة[12]، كما كانت نساء العامة تقوم بتعليم بنات جنسها، فقد كان لحزم المعلم من أهل قرطبة ابنة، تقوم بالتدريس والتعليم، وكان أبوها وأخوها يعلمان التلاميذ، وصارت بيتهم أشبه بالمدرسة[13].

وانعكست هذه الوضعية على نظرة الرجل للمرأة؛ التي امتازت بالاحترام والتوقير، خاصة من عهد إليهن بتربية أبناء الأمراء والأغنياء وتأديبهم[14]، وفي هذا المجال يطالعنا ابن حزم على منابع تلقي ثقافته الأولى على يد نساء قصر أبيه حيث يقول:" ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيري، لأني ربيت في جحورهن، ونشأت في أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب

وحين تبقل وجهي، وهن علمني القرآن، وروينني كثيرا من الأشعار، ودربنني في الخط"[15]، وهذا ما يدلل على الصورة التي ارتسمت للمرأة المتعلمة والتي أصبحت من خلال ها محط ثقة وتوقير علية القوم.

هذا وقد بلغ تعليم المرأة حرة أم جارية حدا واسعا من الانتشار يمكن أن نستوحيه مما ذكره المؤرخون عن أخبار قرطبة قالوا:"كان أهل الربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي هذا في نواحي قرطبة، فكيف بجميع جهاتها"[16]، فإذا كان المراكشي يعجب من هذا العدد الضخم في ناحية واحدة من نواحي قرطبة، فكم سيكون عدد النساء الكاتبات في الأندلس كلها؟.

وتعدت النظرة للمرأة الراغبة في التعلم الى أهل الذمة من اليهود، وتجيء قسمونة بنت إسماعيل بالأندلس من ألمع النماذج على ذلك، إذ سعى والدها الشاعر الى الاعتناء بتأديبها مما يحيل على صورة راقية للتعلم من لدن رب الأسرة، حتى برعت في الشعر والموشحات، مما جعله يقوم "كالمختبل وضمها إليه، وجعل يقبل رأسها"[17]، لما رأى ثمار تربيته الشعرية والأدبية تنضج وتؤتي أكلها، خاصة في ظل بيئة عصر الطوائف التي تحتفي بالشعر كرافد مهم وأساس من روافد الثقافة والفن، ومصدر من مصادر الارتزاق والرفاه، والظاهر أن اختلاط يهود الأندلس بالمسلمين، ورؤيتهم لمكانة المرأة وحقوقها في الشريعة الإسلامية، وفي المجتمع الإسلامي، قد أثَّر في عقلية يهود الأندلس، ودفعهم للتحرر من بعض قيود شريعتهم المهينة للمرأة، والبحث عن مخرج لهم من تلك القيود.

في حين رأى قطاع ممتد من العامة التي تبلورت لديها نظرة الاستهزاء بتعليم المرأة ، فترى أنها لا تليق للتعلم، وحسبنا في ذلك الأمثال الشعبية التي عبرت بصدق عن تمثلات المجتمع لتعلم النساء بقولها" ققر العويد، تقرا وتفسر"[18].

ولم يقتصر الأمر على المسلمات فحسب، إذ تُظهر وثائق الجنيزة التي تُعبّر عن أوضاع يهود العصور الوسطى، وجود نساء متخصصات في تعليم البنات على قلتها[19]، ولاشك أن ارتباطا جوهريا بنظرة الديانة اليهودية لتعليم المراة، والذي ساهم في هذه الندرة وعاملا مثبطا للجنوح الى هذا النوع من التعليم، سيما أنه كان شائعا لدى قطاع عريض من يهود الأندلس اقتصار التعلم في كلّ مراحله على الأولاد فقط، أما الفتيات فقد كن يتعلمن الغزل وبقية صنوف العمل المنزلي في بيوتهن على أيدي أمهاتهن[20].

2- الأديبة والشاعرة والفنانة:

لم تكن المرأة الأندلسية بمعزل عن الأدب والفنون، بل طرقن أبوابه وتضلعن فيه، وإذا تجاوزنا النظرة العددية والكمية نلاحظ أن الشعر النسوي في هذه المرحلة قد انتشر بصورة واضحة، ليس في الطبقة الخاصة فحسب، وإنما في الأوساط العامة أيضا، وإن كانت الحرائر والسيدات أكثر أثرا، إلا أن الجواري كن أبعد أثرا وذكرا[21].

كان للنساء دور كبير في نهضة الأدب، لا تقل أهمية عن مشاركة الرجل، وتحيطنا المصادر هنا بموقفين متناقضتين كانا نتيجة تطور المجتمع وتحرره[22]، فمن جانب صورة المرأة الشاعرة والأديبة من علية القوم والتي نظرت إليها شرائح المجتمع نظرة إعجاب وتقدير، فهذه المرأة الزوجة زينب النفزاوية في عهد المرابطين تتبوأ مكانة عالية بين أدباء جيلها، بفضل مواهبها الفكرية ومعرفتها للشعر[23]، كما كانت الحرة حواء بنت تاشفين أديبة شاعرة جليلة ماهرة جعلها تحتل مكانة هامة في مجالس الأدب والشعر، وتروي

المصادر اجتماع مجلس الكتبة والشعراء بمراكش وإقبال الحرة تريدهم وهم يتحادثون ويأخذون في الشعر، وكان ابن المرخي قد قال صدر بيت وهو:" أنا للبدر أخ" ولم يجزه أحد منهم، إذ أقبلت الحرة فسلمت عليهم وبادرها ابن المرخي وقال لها: حياك الله يا قمري ويا زهري، فقالت: وصفتني والله بآفل وذابل، ففرح بفطنتها، فقالت له: فيم كنتم، قال لها: كنا قد قلنا صدر بيت ولم يقدر أحد على عجزه فقالت: أنشدنيه، فقال:" أنا للبدر أخ "، فقالت على البديهة:" على ذا سنخ"؟ فتعجب الحاضرون من براعتها[24].

وفي عهد الطوائف برزت أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح التي نظمت الشعر، فكانت بارعة في الشعر والأدب[25]، ولعل أم الكرم كانت تصقل موهبتها بما يترامى إليها الى سمعها من الشعر في المجالس التي كان بعقدها والدها.

كما كانت المرأة الزوجة اعتماد الرميكية تشاطر زوجها هوى الأدب ونظم الشعر، مساهمة بنصيب وافر في ارتقاء المستوى الأدبي الرفيع، الذي بلغته إشبيلية في عهد المعتمد ، فمما جاء على لسانها حال سجنه بأغمات " لقد هنّا هنا" فنظم المعتمد أبياتا قال فيها:

قالت لقد هنّا هنا مولاي أين جاهنا

قلت لها إلى هنا صيرنا إلهنا[26].

وانتقل هذا العشق للأدب الى ابنتهما بثينة التي سبيت في العصر المرابطي وقالت شعرا في ذلك، تتحسر فيه على غدر الزمان بقولها:

لا تنكروا أنني سبيت وأنني بنت لملك من بني عباد

ملك عظيم قد ولى عصره وكذا الزمان يؤول للإفساد[27].

وتطالعنا المصادر بعلم من أعلام الشعر والأدب في الأندلس، ارتسمت فيها المرأة الشاعرة والأديبة، فقد بلغت حمدونة وأختها زينب جعلت المؤرخين يلقبنهن بالعربيات لإتقانهم فنونها [28]، وهذه أم العلاء بنت يوسف بن خرز المجلي الحجازية التي كانت من نابغات الشاعرات الأندلسيات، ولها أبيات طريفة في الأشيب الخاطب قائلة له بعد أن ترجاها بكل الطرق:

يا صبح لا تبد الى جنحي فالليل لا يبقى مع الصبح

الشيب لا يخدع فيه الصبا بحيلة فاسمع الى نصحي[29].

وحضرت صورة المرأة الشاعرة الذمية في قسمونة بنت إسماعيل بن نغدالة التي برعت في الشعر والموشحات[30]،ولعل سرعة حضور ملكتها الشعرية سر هذه النظرة المتميزة من جانب الشعراء أنفسهم..

بالإضافة الى تبوأ نزهون بنت القلاعي الغرناطية مكانة هامة عند الشعراء في المخيال الجمعي للأندلسيين، إذ كانت أديبة شاعرة سريعة الجواب، صاحبة أدب ومعرفة وفهم؛ جعلها تحظى لذلك بنظرة متميزة من شعراء الأندلس وأدبائها وأعيانها عصر المرابطين[31]، حتى أن المقري أكد قدرها في معرض حديثه عن أعلام مدينة غرناطة قائلا:" ولم تخل غرناطة من أشراف أماثل، وعلماء أكابر، وشعراء أفاضل، ولو لم يكن لها إلا ما خصها الله تعالى به من كونها قد نبع فيها الشواعر مثل نزهون القلاعية..."[32]، دلالة على مكانتها، خاصة أن نزهون عاشت في أوج الحضارة الأندلسية في القرن الخامس .

ومن شهيرات الأندلس في عصر الطوائف تتضح صورة الأديبة الشاعرة ولادة بنت المستكفي التي أخذت بنصيب وافر في النظم والشعر، جعلها محط الأنظار من الشعراء، والتي اتخذت ندوة أدبية بقرطبة تخالط فيها الشعراء وتساجل الأدباء وتفوق البرعاء[33]، ما ساهم في ترديد الناس أشعارها، مسارعين الى محاضراتها وأخبارها، مفتتنين ببديهتها وأدبها، ومن هنا يمكن طرح استفهام الموقف الموازي للمرأة الشاعرة بالخصوص؟.

وفي معرض الحديث عن ولادة، يلمح أمر يسترعي الانتباه ويرصد نوعا من تجليات الاستفهام السابق، فقد بدأت تتمظهر معها الى حد بعيد منظور الفتاة العابثة الماجنة الكاسرة لتقاليد وأعراف البلاد في نظر شريحة كبيرة من المجتمع[34]، واللائي نظمن شعرا مكشوفا، فقد قيل أنها جعلت من طراز ثوبها إعلانا عن الإباحة والانطلاق حينما كتبت بالذهب على الطراز الأيمن:

أنا والله أصلح للمعالي وامشي مشيتي واتيه تيها

وكتبت على الطراز الأيسر:

وأمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها[35].

كما تتركز هذه الصورة في صديقها التي انقلبت عليها مهجة بنت التياني، إذ أصبح فحش اللسان يجري بطلاقة عندها، مستعملة في ذلك الألفاظ المكشوفة دون تورية أو حياء[36]، ولاشك للتحرر الذي عرفته الأندلس، الى جانب انتشار الجواري وما يحملنه من سمات جمالية، واختلاط المسلمين بالسكان الأصليين أثر في هذه الانطلاقة الاجتماعية التي لم تكن سمة عند كل الأندلسيات.

وإلى جانب الحرائر برزت الإماء والجواري اللاتي كان لهن نشاط مشهود في علوم اللغة العربية مثل النحو وعلم العروض، مثل الأديبة إشراق السويداء العروضية مولاة عبد الرحمان بن غلبون من بلنسية[37]، ولاشك أن لقب العروضية هنا ينم عن مدى إجادتها في هذا العلم وتبحرها فيه حتى غدت علما من أعلامه يشار إليها بالبنان.

واقترنت شهرة بعض نساء الأندلس بذكرهم مع الأمراء والملوك[38]، فمنهن العبادية جارية المعتضد والد المعتمد بن عباد الأندلسي، وكانت أديبة ظريفة ، كاتبة شاعرة[39]، الى جانب غاية المنى أحد جواري المعتصم بن صمادح ملك المرية، بما قدمته من أشعار وآداب[40].

أما دور الإماء في الأندلس فقد كان في شعر الغزل والتغزل الى حد بعيد[41]، وذلك نظرا لكثرتهن وتبذلهن، واختلاطهن بالرجال في مجالس اللهو والشراب والغناء مؤدية الى تشجيع المجون واللهو، فلا يتحرج الندامى في إنشاد الأشعار فيهن، فصوروا المرأة راقصة مغنية، واصفين ملامح وجهها وصفاء بشرتها ومحاسن جسدها[42]، ومما لا شك فيه تحرر الشعر الأندلسي خاصة شعر الغزل الى حد معتبر مقارنة بباقي العالم الاسلامي، لكنه في المقابل لا يمكن استساغة المبالغة في ترديد شعار تحرر شعر الغزل الى حد الخلاعة والمجون، لأن شاعرات قليلات من صرحت بأغراضهن بكل وضوح ودون تورية.

وفي مجال الفنون؛ فإن المصادر تطالعنا بصور متباينة عن صور المرأة، فنجد المرأة الخطاطة، حيث ذكر عن كثير من النساء اللاتي كان لهن باع طويل في فن الكتابة، حتى أنها أصبحت تنافس الرجل جنبا إلى جنب في هذا المجال، وهي نظرة تنم عن نظرة احترام وتقدير، مثل رفاء بنت ينتان الطليلية التي سكنت فاس وبرعت في الخط[43]، كما يعدد

ابن بشكوال طائفة منهن بالأندلس عصر الطوائف أمثال: فاطمة بنت زكرياء بن عبد الله الكاتب المعروف بالشبلاري مولى بني أمية، التي أتقنت الخط اتقانا لفت إليها الأنظار وجعل ابن بشكوال يصفها بالأديبة الشاعرة الموصوفة بحسن الخط ونسخ الكتب الطوال، وكذلك الحال عند الخطاطة طونة بنت عبد العزيز بن موسى بن طاهر بن مناع والتي تكنت بحبيبة، بالإضافة الى الخطاطة ريحانة جارية الطبيب أبي عبد الله الكناني(44)، وهذا يدل على أن المرأة كان لها نصيب وافر في النهضة العلمية والأدبية، في ظل تطور الحياة الثقافية في الأندلس التي ارتكزت على تشجيع الأمراء وإكرامهم للعلماء دون تفريق في الجنس.

أما في مجال الموسيقى فيلمح نظرة قاتمة للمرأة في الغالب، موجه لنساء الأندلس بالخصوص(45)، لكن ذلك لا يمنع من تشكل صورة محببة لهن عند بعض شرائح المجتمع، خاصة أن هذا الفن احتكر الى حد بعيد من الجواري اللاتي تفنن في الرقص والغناء والموسيقى وساهمن في الحركة الغنائية في الأندلس، وقد كان لقصور ملوك الطوائف وعلية القوم نصيب من عشق الغناء ورعاية الجواري المغنيات ودفع الغالي والرخيص لاقتنائهن، فقد اشترى المعتصم بن صمادح جاريته غاية المنى بمائة ألف درهم، وقد برعت في الموسيقى(46)، فقد كان لحسن صوتهن ونعومته جرس ألهب عواطف الشعراء.

كما كانت نزهون الغرناطية رائدة في هذا الصنف، إذ وصفها المؤرخون بظرفها وجمال إنشادها للأشعار(47)، والمتأمل في سياق الروايات التاريخية يرى أن أكثر المغنيات كانوا من الجواري لأنهن أكثر انطلاقا وحذقا في هذا المجال، فأين تموضعت الصورة القاتمة يا ترى؟.

واستناسا على ما سبق يمكن طرح سؤال مهم، كيف ارتسمت صورة المرأة وتحررها عند الفقيه باعتباره أحد مكونات البنية الاجتماعية في الأندلس؟ هل نظر الى هذه المرأة نفس نظرة الطبقات الأخرى من الشعراء وعلية القوم؟ هل سعى الى إحداث تغيير في هذه الصورة وكيف حدث ذلك؟.

إن الحديث عن ذلك يحيل لامحالة الى كتب الحسبة والفقه وبعض الفتاوى الشرعية، ولعل ما وجده المهدي بن تومرت بمراكش بعد رجوعه من المشرق يعكس هذه الحالة الى حد بعيد، فبينما هو في بعض الأيام في طريقه إذ رأى أخت أمير المرابطين في موكبها ومعها الجواري الحسان سافرات، فأنكر ذلك، وأمرهن بستر وجوههن[48]، فلقد كانت والحالة هذه حرية المرأة [49] منطلقا للانعتاق غير المحدود، وفي مجال الموسيقى بالخصوص[50]، معولين على قوله تعالى « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا»[51]، مكرسة بذلك صورة المرأة القاتمة والناقصة العقل والدين[52]، والتي استغلت حريتها لأغراض مخالفة للشرع والأعراف الاجتماعية، لذا نهى ابن عبدون المحتسب عن المناصب التي شغلتها بعض النسوة، حفاظا على عرضهن[53]، وفي هذا الصدد يقول ابن الحاج العبدري "وحيلهن في هذا وغيره قل أن تنحصر، حتى لقد تلف كثير من الناس بسببهنّ... فبعض الناس أتلف عليهنّ دينه، وبعضهم نفسه، وبعضهم ماله"[54]، وشّدد على خروج المرأة متزينة مكشوفة الوجه للبيع أو الشراء[55]، فإذا كان هذا الموقف من المرأة التي تخرج فقط مكشوفة الوجه، فكيف والتي تتعاطى الغناء والموسيقى والرقص؟.

كما نجد ابن عبد الرؤوف القرطبي يحدث ويشيد من جانبه على أهمية منع النساء من الوقوف على الأبواب[56]، لما فيه من كشف وعدم استتار، وتكشف هذه النصوص

مدى الشطط الأخلاقي والتفلت من الأحكام الشرعية والأعراف الاجتماعية والتي نقلها لنا عبد الواحد المراكشي عند تحدثه عن صدى حضور صورة المرأة السلبية زمن علي بن يوسف حين قال:" ظهر في زمانه مناكر كثيرة وفواحش شنيعة من استيلاء النساء على الأحوال واستبدادهن بالأمور، ولأن كل شرير من لص أو قاطع طريق ينسب الى امرأة قد جعلها ملجأ ووزرا على ما تقدم"[57]، والتي رسمت الصورة السوداء للمرأة الشاعرة والأديبة أولا لأنها الأكثر تحررا وقتها، الى جانب جمالها الأخاذ الذي يخشى عليه من الزلل، لتتدرج الى كل صنوف النساء، فهل النظرة هنا خوفا على المرأة في حد ذاتها، أم خوفا منها على الرجل؟.

3- المرأة الفقيهة والصالحة:

كان للنساء دورا كبيرا في النشاط الديني، فقد أمدتنا الكتب التراجم بعدد من أسماء الفقيهات اللاتي أسهمن في ازدهار الفقه وتعليمه لأبناء جنسهن، ويبدوا أن صورة المرأة الفقيهة المتدينة لاقت قبولا حسنا من لدن الناس والمجتمع ومنهن الفقيهة، فمما ذكر عن أخبار قرطبة أنه "كان أهل الربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي"، كما كان بالأندلس حافظات للقرآن الكريم، ترفع كل واحدة منهن قنديلا فوق باب بيتها إشارة الى أن هناك حافظة[58]، وهي ظاهرة تستحق الإعجاب والتنويه، خاصة تميز النساء في هذا الميدان وبروز عدد كبير منهن ناسخات ماهرات.

أما إذا أردنا تعديد نماذج للمرأة الصالحة والفقيهة على اختلاف تخصصاتها، وارتسام خط المرأة الفقيهة من خلالها، فستستوقفنا في هذا المجال نظرة الاحترام للمرأة الصالحة زينب ابنة إبراهيم بن تيفلويت زوجة الأمير أبي الطاهر بن تميم لصدقاتها السخية

وعطفها على المعوزين[59]، أما خارج البلاط المرابطي فتتردد أسماء بعض بنات العلماء والوجهاء أمثال زينب بنت عباد بن سرحان التي روت عن أبيها وأجاز لها، وفاطمة بنت الفقيه أبي علي الصدفي التي كانت زاهدة في الحياة[60].

بالإضافة فقيهات تبوأن مكانة مرموقة في المجتمع الأندلسي، فهذه طونة بنت عبد العزيز بن موسى، زوج أبي القاسم بن مدير الخطيب المقرئ، والتي أخذت علومها من الحافظ أبي عمر بن عبد الله بن عبد البر النمري، وقرأت بعض مصنفاته الفقهية، كما أخذت عن الفقيه أحمد بن عمر بن أنس العذري ووصفت بالدين والعلم وجلاله القدر، فاضلة قارئة[61]، وأمة الرحمان بنت عبد الرحمان بن عبد القادر العبسي الزاهدة، التي روت عن أبيها، وكانت صوامة قوام، روي عنها الحديث النبوي الشريفة[62]، حتى أنها بلغت مرتبة الأستاذة الشيخة، خاصة بعد حضورها للمجالس العلمية التي كان يعقدها كبار علماء عصرها، وإجازتها لعدد من العلماء بسبب ذلك[63] بالإضافة عتيق الأقوبية التي وصفتها المصادر بالمرأة الصالحة، أخذت عن أبيها علم التفسير إلى جانب اللغة والعربية والشعر عن زوجها الفقيه، وكانت تقرأ القرآن بالقراءات السبع وتجويدها وتضبط المصاحف[64].

وبلغ النبوغ الفكري النسوي في حد الأندلس حدا معتبرا، وتشير المصادر الى حادثة طريفة تنم عن صورة المرأة الفقيهة، فقد روى المقري أن زوجة قاضي مدينة وادي لوشة كانت تبث في القضايا والنوازل المستعصية بين المتقاضين، إذ كان هذا القاضي يستأنس في حكمه بما تشير عليه زوجته الفقيهة، حتى قيل أنها فاقت العلماء في الأحكام والنوازل، ما جعل القاضي محط سخرية فأنشدوه:

بلوشة قاض له زوجة وأحكامها في الورى ماضية

فيا ليته لم يكن قاضيا ويا ليتها كانت قاضية[65]،وما يستشف هنا خير دليل على ما وصلت إليه صورة المراة الفقيهة داخل مخيال المجتمع.

وكانت مريم بنت أبي يعقوب الفصولي من فاضلات الأندلس، مجسدة لصورة المرأة الفقيهة في أجمل تجلياتها داخل المخيال الجمعي، حتى شبهها أدباء عصرها بأنها تحاكي مريم العذراء في عفتها والخنساء في أدبها وشعرها بقولهم:

أشبهت مريما العذراء في وزع وفقت خنساء في الأشعار والمثل[66]، والملاحظ في هؤلاء النسوة أنهن جمعن بين العلم والدين في موسوعية مشهودة على عادة علماء ذلك العصر، رغم تحسس طغيان وسط فقهي رجالي بامتياز، إذ من النادر وجود نساء تبحرن في العلوم الفقهية، باستثناء بعض المتصوفات اللواتي أحطن ببعض أهم المبادئ الفقهية، فعلى الرغم مما يبشر بليبرالية المجتمع الأندلسي إلا أن عدد الفقيهات قليل، والذي لا يعني في نفس الوقت انعدامهن، ومرد ذلك الى أن هذا الاختصاص أملته اعتبارات اجتماعية وشرعية أيضا، لأن من ضمن الشروط الأساسية للاضطلاع ببعض الخطط الدينية شرط الذكورة، علاوة على صعوبة متابعة حلقات تدريس الفقه بالنسبة للذكور، فما بالك بالإناث.

خاتمة:

مما تقدم يمكن القول أن تعدد الدويلات والبلاطات التي حكمت بين المغرب والأندلس في عصر الطوائف والمرابطين، فضلا عن التطور العلمي والثقافي عوامل ساعدت على تطور ونمو نظرة متعددة ومتناقضة للمرأة الأندلسية، والتي اتضحت معالمها في حضورها الثقافي، مفرزا دورا فاعلا سواء إيجابا أو سلبا على المنحى الحضاري، مؤديا الى تنوع حضور المرأة حسب شخصية الأمير والرجل ضعفا وقوة، ومع ضعف وقوة البلاط في حد ذاته، مع ازدياد المكانة العلمية للمرأة الأندلسية في المجالس العلمية

والتعليمية، والذي ينم عن حضور قوي لها في بعض المراكز، ومتباينة في الوقت ذاته بين الطبقة الخاصة الارستقراطية والعامة، مما يدلل على حيوية عصر هذا واحتوائه على نساء كان لهم شأن ونظرة خاصة سواء شاعرات أو أديبات فنانات أو عالمات فقيهات صالحات.

الهوامش:

[1] جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترج عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص 489.

[2] هو المعتصم بالله الواثق بفضل الله أبو يحي محمد بن معن بن صمادح التجيبي ثاني حكام طائفة المرية من بني صمادح التجيبي في عهد ملوك الطوائف تولى الحكم عام 443هـ خلفا لأبيه مهين بن صمادح وبعد أن سقطت طليطلة في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة عام 478هـ، اتفق معظم ملوك الطوائف على استدعاء المرابطين وهو الأمر الذي لم يكن ابن صمادح من المتحمسين له ، توفي في أواخر 484هـ، انظر ابن الآبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي)، التكملة لكتاب الصلة، تح عزة العطار الحسيني، د. ط، مكتبة النشر الثقافة الإسلامية، مصر، 1937، ج2، ص 81.

[3] الحميدي (أبو عبد الله محمد بن أبي نصر)،جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تح إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، 1973، ص 412. ابن بشكوال(أبو القاسم خلف بن عبدالله)، كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس، ج2، د. ط، المكتبة المصرية، بيروت، 2009، ص 256.

[4] ابن عبد الملك المراكشي(محمد بن محمد بن عبد الملك)، الذيل والتكملة في كتابي الموصول والصلة،السفر الخامس، تح محمد بن شريفة،مطبعة المعارف الجيدة، الرباط، 1984،ص490.

[5] المقري(شهاب الدين أحمد بن محمد)، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب،ج5، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968،ص292. ابن الخطيب(لسان الدين السليماني)، الإحاطة بأخبار غرناطة، ج1، حققه وقدم له محمد عبد الله عنان،د.ط، دار المعارف، مصر، د.ت، ص490.

[6] المقري، نفسه.

[7] ابن الخطيب، المصدر السابق،ج1،ص 430.

[8] الحميدي،المصدر السابق، ص412. المقري، المصدر السابق،ج 4ص291. ابن بشكوال، المصدر السابق،ج2ص 722.

[9] المقري،المصدر السابق، ج5،ص73.

[10] ابن بسام (أبو الحسن علي الشنتري)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق2، ج3. تح إحسان عباس، د. ط، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، د. ت،ص190.

[11] ابن الآبار، التكملة،ج4، ص251. المقري، المصدر السابق، ص 42.

[12] الحميدي، المصدر السابق، ص412. الضبي (أحمد يحي بن عميرة)، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، د. ط، مؤسسة الخانجي، مصر، 1884،ص544.

[13] ابن الآبار،المصدر السابق، ج1، ص 281

[14] خوليان ريبيرا، التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيرها الغربية، تر الطاهر أحمد مكي، د.ط، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص 130.

[15] رسائل ابن حزم،ج1، تح إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت، 1987،ص166.

[16] عبد الواحد(المراكشي أبو علي بن محمد التميمي)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس الى آخر عصر الموحدين، ضبط و تصحيح محمد سعيد العريان، ط7، دار الكتاب ، الدار البيضاء،ص299.

[17] المقري،المصدر السابق،ج3، ص530.

[18] الزجالي أبي يحي بن عبيد الله بن أحمد، أمثال العوام في الأندلس،ج2، تحقيق وشرح ومقارنة محمد بن شريفة، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي،المملكة المغربية،1975،ص 416.

[19] خالد يونس عبد العزيز الخالدي، اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس،مكتبة ودار الأرقم، فلسطين،2011، ص388- 389.

[20] عمر بنميرة، جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس الإسلامية، مجلة دراسات أندلسية، العدد14، تونس،1995، ص65.

[21] مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، 1997،ص117-118.

[22] ولعل من أهم أسباب هذا التحرر خاصة النساء الأندلسيات جمال الطبيعة، فالأندلس بلاد جميلة، حباها الله طبيعة ساحرة من خضرة ومياه وانهار وبساتين وقصور، فلها حظ كبير من الجمال البشري كحظ بيئتها من الجمال الطبيعي، ثم أضفى حسن الحضارة الجديدة الممزوجة بكل الألوان الأوربية على الأندلس من الرقي المرموق، ما جعل سكانها يحافظون على الجمال الطبيعي في بلدهم ويزيدون فيه، حيث أكثر الأندلسيون من وصف الرياض والمنتزهات والأزهار والأنهار وما شابه. أحمد خليل جمعة، نساء من الأندلس، اليمامة للنشر والتوزيع، دمشق بيروت،2001، ص141.

[23] ابن عذارى (أحمد بن محمد المراكشي)، البيان المغرب في أخبار افريقية والمغرب، ج4، تح ج.س كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، 1983، ،ص56،18.

[24] نفسه، ص57.

[25] ابن سعيد (المغربي علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك)، المغرب في حلى المغرب، ج2، تح شوقي ضيف، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1955م، ص202.

[26] المعتمد بن عباد، ديوان المعتمد بن عباد، تح حامد عبد الحميد و أحمد أحمد بدوي،ط3، دار الكتب المصرية،القاهرة،2000،ص114.

[27] المقري،المصدر السابق،ج6،ص64.

[28] جلال الدين السيوطي، نزهة الجلساء في أشعار النساء، تح عبد اللطيف عاشور،مكتبة القرآن، القاهرة، دت،ص25. المقري، المصدر السابق،ج6،ص69.

[29] المقري، نفسه، ج5،ص320.

[30] نفسه،ص74.

[31] ابن الخطيب، الإحاطة، ج3، ص 344. ابن الآبار، المصدر السابق، ج4، ص 258.

[32] المقري، المصدر السابق،ج4،ص207.

[33] ابن بشكوال، المصدر السابق،ج2، ص345. المقري، المصدر السابق،ج5،ص179.

[34] الريسوني محمد المنتصر، الشعر النسوي في الأندلس، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، دت، ص75.

[35] المقري،المصدر السابق،ج5،ص340.

[36] نفسه،ج6،ص73.

[37] ابن الآبار، التكملة،ج4، ص251. المقري، نفسه، ص 42.

[38] وقد أتى غرسيه غومس عين الصواب عندما قال عن هذه الحالة:" إن ذلك القرن الحادي عشر الأندلسي لعالم عجيب متدافع الحركة، عصر كانت فيه الغاسلة تنتقل من ضفة النهر الى العرش" إميليو غرسيه غومس، الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه،تر حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية،1956،ص54.

[39] المقري، المصدر السابق، ص63.

[40] ابن الآبار، التكملة، ج4، ص252-253.

[41] يبدو أن صورة الشاعرة المتغزلة السلبية تجاوزت الإماء الى الحرائر، إذ يطالعنا ابن سعيد أن الفتى المدعو سمارا والذي أنشدت فيه أم الكرم بنت المعتصم بن صمادح شعرا غزليا توارى عن الأنظار خوفا من بطش والدها. المصدر السابق،ص203.

[42] ابن الآبار، التكملة،ج4،ص43.

[43] ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق، السفر الثامن، ص493.

[44] الضبي، المصدر السابق، ص527. ابن بشكوال،المصدر السابق، ج2،ص 655،645.

[45] لاشك أن حياة الشظف في المواطن الأولى للمرابطين بالصحراء لعبت دورا بارزا في عدم توجههم لهذا المجال، على نقيض ملوك الطوائف الذين اعتادوا حياة البذخ والترف، وقد تكون للطبيعة القاسية لموطن المرابطين دور في ابتعادهم على هذا النوع من الفن، لكن اندماجهم فيه سيكون تدريجيا بعد استقرار الأمر وتذوق الحضارة.

[46] ابن الآبار، المصدر السابق، ج4، ص252-253.

[47] ابن الخطيب، الإحاطة،ج3، ص 344. ابن الآبار، المصدر السابق، ج4، ص 258.

[48] البيدق(أبو بكر بن علي الصنهاجي)، كتاب أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تقديم وتعليق وتحقيق عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986،ص17.

[49] يستدل على شيوعها عند الإماء خاصة قول ابن حزم:" ربات الخدور المحجوبات من أهل البيوتات". رسائل ابن حزم، ج1،ص70.

[50] استهجن لسان الدين بن الخطيب الى استهجان ما وصلت إليه النساء الأندلسيات في عهد الطوائف من التفنن في الزينة والمبالغة فيها الى حد التماجن قائلا:" وقد بلغن من التفنن في الزينة لهذا العهد والمظاهرة بين المصبغات والتنفيس بالذهبيات والديباجات والتماجن في أشكال الحلي الى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر". نفسه، ج1،ص139.

[51] سورة لقمان، الآية 06.

[52] والجدير بالملاحظة أنّ هذه النظرة التي تحط من قيمة المرأة، كثيرًا ما حاولت أن تستمد مرجعيتها من أحد الروافد الهامة المحددة لبنية الثقافة السائدة وهو الرافد الديني؛ فبالإضافة إلى تفسير النص القرآني، وتأويله بما ينسجم ويدعم نسق المعايير والقيم التي تعتبر الرجال قوّامين على النساء.

[53] ابن عبدون الجرسيفي، رسالة في القضاء والحسبة، نشر وتعليق ليفي بروفنسال، الجريدة الآسيوية، أفريل – جوان 1934م، ص 37.

[54] ابن الحاج، المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انحلت وبيان شناعتها وقبحها، ج3، المطبعة العامرة الشريفة، 1320هـ، ص 52.

[55] المجيلدي، كتاب التيسير في أحكام التسعير، تقديم وتحقيق، موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1970م، ص 70. ابن سراج (الأندلسي أبي القاسم بن سراج)، فتاوي قاضي الجماعة، تح محمد أجفان، دار بن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،2006،ص226.

[56] ابن عبد الرؤوف (أحمد القرطبي)، في آداب الحسبة والمحتسب، تح فاطمة الإدريسي، دار بن حزم، بيروت، 2005م، ص 311.

[57] المعجب، ص263. وتجدر الإشارة الى تمشي المراكشي مع خط الخطاب الذكوري الذي يحمل المراة كل مأساة في المجتمع، وبكلامه هذا يريد أن يحمل المراة المسؤولية كاملة فيما آلت إليه الدولة من فساد، متناسيا أن هذه الأعراض ماهي في الحقيقة إلا نتائج في حد ذاتها وليست أسبابا.

[58] نفسه، ص 299،297.

[59] ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق، السفر الثامن، ص498.

[60] مليكة حميدي، المرأة المغربية في عهد المرابطين، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الاسلامي، إشراف صالح بن قربة، جامعة الجزائر،2001-2002،ص180.

[61] ابن بشكوال، المصدر السابق، ج2، ص 655.

[62] نفسه، ،ص694.

[63] ابن الآبار، المصدر السابق، ج1،ص308.

[64] نفسه ،ج4،ص251

[65] المقري، المصدر السابق،ج4،ص294.

[66] الحميدي،المصدر السابق، ص412-413.